قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

تفكيك بنية العقل الديني
التفكير في فضاء تاريخي عربي من منظور يوسف زيدان

Dismantling the structure of the religious mind
Thoughts about the Arab historical space by Youssef Zeidan

عبلة ساتة [1,*]، أ. د سفيان زدادقة [2]
[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، سطيف، مخبر السرديات والأنساق الثقافية، الجزائر.
[2] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، سطيف، الجزائر.

Key words:

Macro structure

Theology

Policy

Violence

Basic concepts

Reconstruction.

Abstract

This research seeks to analyze one of the contemporary Arab intellectual projects that are concerned with analyzing the causes that led to the failure of the Arabs to achieve their own renaissance, and the dangerous repercussions under which the region lives. Youssef Zeidan's project takes the character of radical criticism, as it seeks to reconstruct a set of basic perceptions within contemporary Arab consciousness. Starting from "prudence" as the necessary activity in the state of "confrontation with madness" experienced by the Arab mind.

By deconstructing his critical strategy, the research concluded that the goal he was seeking was to activate the vision of the comprehensiveness of the historical space that extends to include the two banks of the Mediterranean and the Fertile Crescent, and through it the various problems that the Arabs and the whole world know can be solved.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 2022/02/05
القبول : 2022/03/05

الكلمات المفتاحية:
نية كلية
لاهوت
سياسة
عنف
مفاهيم وتصورات كلية
إعادة بناء.

ملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة وتحليل واحد من المشاريع الفكرية العربية المعاصرة، المنشغلة بالوضع العربي الراهن وتحليل الأسباب التي أدت إلى فشل العرب في تحقيق نهضتهم الخاصة، وما انجر عنه من تداعيات خطيرة تعيش في ظلها المنطقة. ويتخذ مشروع يوسف زيدان صبغة النقد الجذري، حيث يسعى إلى إعادة بناء مجموعة من التصورات الأساسية داخل الوعي العربي المعاصر، بعدما ارتهنت مفاهيمه إلى التبعية والتقليد. منطلقا من "التعقل" بوصفه الفاعلية الضرورية في ظل حالة "المواجهة مع الجنون" التي يعيشها العقل العربي. حيث يعزو هذه الفوضى التي أدت إلى سقوط دول بأكملها، إلى اختلاط المفاهيم وضبابية الرؤى وتشوش الأذهان، ومن هنا تكمن أهمية عمله/إعادة بناء العقل العربي على أسس أكثر يقينية، لمواجهة حالة التسيب الدلالي والفوضى الفكرية وعدم وضوح الرؤية والضياع المستشري حاليا.

وقد توصل البحث من خلال تفكيك استراتيجية الرجل النقدية، إلى أن الغاية التي كان يسعى وراءها، إنما هي تفعيل الرؤية القاضية بشمولية الفضاء التاريخي الذي يمتد ليشمل ضفتي المتوسط ومنطقة الهلال الخصيب، ومن خلال هذه الرؤية يمكن حل مختلف المشاكل التي يعرفها العرب والعالم بأسره على حد سواء.

* Corresponding author at: Mohamed Lamine Debaghine University -Setif2, ALGERIA
Email : satta.abla@gmail.com

1. مقدمة

إن السؤال الذي انشغل به رواد النهضة العربية والمتمثل في الأسباب التي جعلت الغرب يتطور وجعلت المسلمين - في الآن ذاته - يتخلفون، لا يفتأ المثقفون المعاصرون يطرحونه بعد أزيد من قرن من الزمان، لفشل مختلف المساعي التي أطلقها السابقون في مشاريعهم الرامية إلى حل هذا الإشكال. ويعتبر يوسف زيدان واحدا من النقاد المعاصرين الذين انشغلوا بهذا الهم التاريخي الذي يرتبط به مصير العرب ومستقبلهم، خاصة في ظل اللحظة الراهنة. فحاول تقديم رؤية شاملة للوضع الحالي وجذوره الممتدة عبر تاريخه الطويل، وبيان السبل التي من شأنها أن تجعل المستقبل أكثر إشراقا مما تنبئ به الأوضاع الراهنة.

يسعى يوسف زيدان من خلال مشروعه التثقيفي العام، إلى إعادة بناء العقل العربي من جديد بعدما ارتهنت مفاهيمه ومقولاته إلى التبعية والتقليد. ومن خلال مقاربته الجديدة للأديان - وهو ما سنستعرضه في ثنايا هذا البحث - يعمل على إعادة بناء مجموعة من المفاهيم العامة والتصورات الأساسية التي تحكم هذا العقل. ومن هنا اتخذ عمله هذا صبغة نقدية/ جذرية/ أركيولوجية، مثلما تجلت في العديد من المشاريع النقدية المعاصرة. فماهي الرؤية التي انطلق منها والنتائج التي توصل إليها؟ وإذا كانت المشاريع النقدية المعاصرة قد جعلت من العقل العربي منتهى اشتغالها، فما هو الجديد الذي تقدمه رؤيته هذه؟ وإذا علمنا أن بحثه ينصب على المفاهيم الكلية/ المسلمات لإعادة بنائها من جديد، فما هي الضمانات التي يقدمها يوسف زيدان لتبرير عمله هذا؟

ومن خلال المنهج الوصفي/التحليلي، سوف نحاول الكشف عن استراتيجيته التي يتبناها في إعادة البناء هذه، والتي طالت مجموعة من المفاهيم الكلية منها والتفصيلية الفاعلة في الوعي العربي المعاصر، تمهيدا لتقديم الحلول المناسبة للمشاكل - الأمنية خاصة - التي تتخبط فيها المنطقة العربية والعالم أجمع.

2. مقدمة ضرورية

يشبه يوسف زيدان العقل العربي بجهاز الكمبيوتر الذي تدخل عليه مجموعة من الفيروسات فتحدث فيه أعطابا متفاوتة الخطورة مما يستدعي إعادته إلى شكله الأول، وتتم هذه العملية بإعادة برمجته من جديد، دون الحاجة إلى رمي الجهاز نهائيا. هكذا هو حال العقل العربي في نسخته المعاصرة، حيث دخلت عليه مجموعة من الفيروسات عن طريق وسائل متعددة أهمها مناهج التعليم التي - في رأيه - لا تقول الحقيقة بل تزيّفها، وهو ما يستوجب إرجاعه إلى شكله الأول وتخليصه من تلك الفيروسات. ولإرجاعه إلى حالته الأولى لابد من إعادة بناء مفاهيمه الأساسية بالشكل الصحيح. ويؤكد في كل محاضراته على الأهمية التي يكتسيها هذا العمل/إعادة بناء المفاهيم والتصورات الكلية التي تؤسس رؤيتنا للعالم ولأنفسنا وللآخرين.

يفرق يوسف زيدان بين الأفكار العامة الكبرى والأفكار التفصيلية أو التطبيقية، فالأفكار العامة هي المفاهيم الركيزية التي تقوم عليها أفكارنا التفصيلية بوصفها تطبيقات لها في حياتنا اليومية مما يعطيها أهمية كبرى. وما يكسب عملية إعادة بناء هذه المفاهيم الكبرى في الوقت الراهن، هو الحالة المتردية التي تعرفها المنطقة العربية، حيث وصل العقل الجمعي إلى مرحلة من "الخبل العام"، يقول يوسف زيدان: "إن العقل الجمعي في مصر [والبلاد العربية]، والعقل الفردي أيضا، صار يواجه في الفترة الأخيرة حالة مريرة من انعدام الفهم، وفقدان القدرة على الإدراك، والعمى عن الرؤية الكلية للوقائع. وهو ما يقود بالضرورة إلى حالة "المواجهة مع الجنون"." (**زيدان، فقه الثورة**، 2013، **صفحة** 116) إن لهذه الحالة الأخيرة أسبابها المباشرة والتي يشخصها باختلاط المفاهيم والتصورات وانعدام المنطق والذي ظهر على شكل خلافات دامية في أماكن، ومحتدمة في أماكن أخرى، ومحاصرة ومسكوت عنها في أماكن ثالثة، إضافة إلى الاضطراب الاقتصادي الكبير، هذا عدا عن تردي المناهج التعليمية والمستوى الثقافي بشكل عام، الذي يعتبره الموجه الأول للسلوك الإنساني. إن حالة التوهان هذه وعدم انضباط التصورات ترتبط - في رأيه - بحالة عدم انضباط الدلالات، فإذا كانت المفردة الواحدة في الكلام اليومي غير متفق على معنى محدد لها فما بال الأمر بالمفاهيم الكلية الكبرى. حيث يرى بأنه - ومنذ عقود خلت - لم يعد أحد يعنى بتحرير وتدقيق الدلالة وأيضا المعاني الكلية - كما كان الأمر سابقا - ما يجده أمرا خطيرا، ترتبت عنه هذه الفوضى التي نعيش في وسطها والتي أدت إلى سقوط دول بأكملها، لما كانت أساساتها غير مبنية بالشكل الصحيح. ومن هنا تكمن أهمية الموضوع الذي يطرحه لمواجهة حالة التسيب الدلالي والفوضى الفكرية وعدم وضوح الرؤية والضياع المستشري حاليا.

إن يوسف زيدان يعي خطورة هذه المهمة، ولكنه يعتبرها ضرورة لابد منها لتصحيح مسار الفكر العربي المعاصر، لارتهانه لتصورات ماضوية أملتها ظروف تاريخية محددة وبالتالي فهي محكومة بتلك الرؤية فقط، ولكن ولظروف معينة عاشتها المنطقة العربية تم أسطرة تلك التصورات فخرجت عن آنيتها متخذة طابعا مقدسا متعاليا على الزمان، وهو الأمر الذي أصبح بمثابة العائق الذي يعزو إليه فشل كل محاولات التجديد والتجاوز، الذي من شأنه أن يلحق الأمة العربية بركب الأمم المتحضرة. ومن هنا يرى أن الهوس الجماعي الذي يتخبط فيه العرب إنما علاجه التعقل، والجنون الساري في جميع المسالك علاجه المنطق، والخبل العام الذي ساد مؤخرا علاجه التريث.

وبما أن العقل العربي في نسخته المعاصرة - حسبه - يعاني مشكلات مركبة، فإن حل هذه الوضعية يتطلب تفكيكها إلى عناصرها الأولية البسيطة ومعرفة مكمن الإشكال فيها، مما

يتيح معالجتها على نحو أفضل. فهو يسعى للوصول إلى اليقين الذي يمكن البناء عليه، بوصفه الأساس الذي يشيد عليه صرح المعرفة الحقة التي لا يطالها الشك، للخروج من حالة الفوضى والجنون هذه. ومن هنا يتخذ يوسف زيدان الشك معينا له في رحلته البحثية. ويعبر عن إعجابه الشديد بهذه المنهجية التي التزم بها ابن النفيس في مؤلفاته واختار أن يبدأ روايته "محال" بعبارته البديعة التي يقول فيها: "وأما الأخبار التي بأيدينا الآن، فإنما نتّبع فيها غالب الظن لا العلم المحقّق، خلافا لقوم.. (يقصد: مخالفة لما قد يعتقده كثيرون)" (**زيدان، فقه الثورة**، 2013، **صفحة** 234). ويلتمس من متلقيه – على غرار رواد الشك – عدم مبادرته بالإنكار إذا ما وجد في أفكاره ما يخالف العادة، مستشهدا أيضا بعبارة لابن النفيس، يقول يوسف زيدان: "ومن بدائع العلاء المنهجية، تلك القاعدة الذهبية التي لا أملّ ذكرها والتذكير بها، لإعجابي المفرط بمعانيها وصياغتها. يقول العلاء بن النفيس: "وربما أوجب استقصاؤنا النظر، عدولا عن المشهور والمتعارف. فمن قرع سمعه خلاف ما عهده، فلا يبادرنا بالإنكار. فذلك طيش. فربّ شنع حقٌّ، ومألوف محمود كاذب. والحق حق في نفسه، لا لقول الناس له، ولنذكر دوما قولهم "إذا تساوت الأذهان والهمم، فمتأخر كلّ صناعة خير من متقدّمها" (**زيدان، كلمات..التقاط الألماس من كلام الناس**، 2011، **صفحة** 146) معتبرا إياها "منهجية عامة" متعلقة بطريقة التفكير الإنساني الكلي، ولنتذكر أيضا رأي الغزالي حيث، "يجعل الحق قائما بنفسه لا بمن قاله، فالعاقل كما يقول ينظر في الشيء، فإذا وجده حقا قبله سواء كان قائله مبطلا أو محقا. وليس يجوز أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، لأنه إذا جاز ذلك لزمنا هجر كثير من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة من آيات القرآن، وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الصوفية لأن صاحب كتاب إخوان الصفا أوردها في كتابه. فعلى العاقل أن يعرف الرجال بالحق، لا الحق بالرجال" (**صليبا**، 1989، **الصفحات** 397-398). والغرض الذي يرمي إليه الرجل، إنما هو الإشارة إلى ضرورة إعمال العقل فيما يرد على المتلقي والتأني قبل المبادرة بإطلاق الأحكام والإنكار لا لشيء إلا لمخالفته المعتاد من أساليب التفكير، لذلك نجده في كتابه الموسوم بـ "اللاهوت العربي وأصول العنف الديني يقول: "إن هذا الكتاب وضع بشكل عام للمهتمين بالدين والسياسة، وبشكل أعم للقارئ الواعي المنشغل بارتباط الدين بالعنف بالسياسة، شريطة أن يكون هذا القارئ غير كسول، وغير معتاد على تلقي الإجابات الجاهزة عن الأسئلة النمطية" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 38). فلتحقيق الغاية الأساسية/ إعادة بناء الفكر العربي، لابد من رفض التقليد والخروج من تلك السياجات الدوغمائية التي تكبل حركة الفكر.

وهو بهذا، يراهن على الفرضية الأساسية التي انطلق منها ديكارت بقوله إن "العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس". فبتأكيده على خاصية الاشتراك في القدرة على التمييز بين الحق والباطل وبالتالي الوصول إلى الحقيقة - لا فرق في ذلك بين الذكي والأقل ذكاء - يرجع منشأ الإشكال الذي يعانيه الفرد العربي إلى طريقة توجيه العقل، وليس للعقل في ذاته. فلا يكفي امتلاك العقل/فهو خاصية مشتركة بين الجميع بالتساوي، إنما الأهم من ذلك هو توجيهه الوجهة السليمة التي تمكنه من الوصول إلى اليقين. ومن هنا فإن تفعيل دوره في الوصول إلى هذه المعرفة اليقينية بالإضافة إلى استقلاله بعدم الارتهان إلى التقليد، لابد سيكفل الوصول إلى الحقيقة. يقول يوسف زيدان: "فلابد للعقل، نظرا لطبيعته الأساسية، أن يترصد هذه الوقائع جميعها لفهمها، ويسعى جاهدا للوعي بمفردات هذا الواقع الغرائبي (الواقعي السحري) وإلاّ ساد الجنون وأطبق على الجميع بحسب القاعدة التي أشار إليها "ديكارت" حين قال إن استعمال العقل يستبعد خطر الجنون. ومن هنا، نطرح "الأسئلة التأسيسية" الساعية إلى استعادة الوعي العقلاني بالواقع، وبالتالي إبعاد شبح الجنون عن العقل الجمعي" (**زيدان، فقه الثورة**، 2013، **صفحة** 203). ولتحقيق هذا المسعى يدعو إلى التثقيف العام - بوصفه الوسيلة الأنجع في ظل الظروف الراهنة - في مقابل التعليم الرسمي الذي ينادي بضرورة إصلاحه.

ولم يصطنع يوسف زيدان، الشك من أجل الشك موقفا له لمواجهة حالة الجنون التي يتخبط فيها العقل العربي/ الجمعي في نسخته المعاصرة مما يزيد حالة الفوضى ويشيع الاضطراب. ولكنه يصطنع الشك المنهجي في طرحه للأسئلة التأسيسية، لإعادة البناء من جديد على أسس أكثر يقينية، ومن هنا يقف موقف المشكك إزاء التصورات التي تحكم تفكيرنا والتي انتقلت إلينا سابقا عن سابق، دون إخضاعها لعملية النقد وإعمال النظر. الأمر الذي جعله يرفض مختلف المعارف/التي تقدمها المناهج التعليمة والأزهرية منها، ويقرر عدم قبول أي شيء قبل إخضاعه لميزان العقل وقواعد المنطق. ومن بين المسائل التي سيوجه إليها معاوله النقدية/الهدمية، تلك الدعاوى التي باتت ترفعها مختلف الهيئات ذات الأغراض المتعددة والمبطنة، المنادية بحوار الأديان، معملا النظر أيضا في فحوى العلم المسمى (علم مقارنة الأديان). فماهي التصورات التي يسعى إلى إعادة بنائها داخل هذه التوجهات؟

3. تفكيك مصطلح "السماوية"

استنادا إلى مبدأ البداهة؛ الذي يقول حسب المفهوم الديكارتي: " ألاّ أقبل شيئا على أنه حق، ما لم أعرف يقينا أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك" (**ديكارت**، 1968، **الصفحات** 130-131). ينطلق يوسف زيدان في تحليل مسألة درجنا عليها، ولم تكن معروفة عند علمائنا الأوائل منهم ولا الأواخر، ألا وهي وصف الديانات التي عرفتها المنطقة العربية: اليهودية والمسيحية والإسلام بأنها "ديانات سماوية".

فقد أطلق القدماء وصف أهل الكتاب على أصحاب التوراة والإنجيل، ووصف الكفار على الذين لا يؤمنون بالله، أيا كان شكل معبودهم: أصنام/أوثان، نار، كواكب... ومن حيث أن أي دين، مهما كان إنما هو سماوي بالضرورة، لغة واصطلاحا؛ فالسماء كما قرر علماء اللغة تعني العلو، "فإن كل ما أظلّك وعلاك هو سماء.. فالسماء، في حقيقة الأمر، لفظ لا يقع معناه على شيء محسوس محدد، وإنما على أي سقف كان، ولو كان سقف الغرفة. وقد قيل للسحاب سماء؛ لأنه يعلو ويُضل لا أكثر من ذلك ولا أقل" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 10). تصبح هذه التسمية حسب الاستعمال اللغوي، عبارة عن وصف عام لكل ما هو مفارق/متعال، دون أن تختص به جهة معينة. فـ (الكفار) أيضا "يتعالون بما يعبدونه من محسوسات، فيتسامون بها إلى مرتبة الألوهية حين يصيّرونه متعاليا عن وجوده الفيزيقي، ومتجاوزا لحده الفعلي، فيكون بلفظ فلسفي (ترنسندنتالي).. أي أنهم يتعالون بمعبوداتهم إلى سقف سماوي يفارق واقعها المحسوس، بحسب ما يتوهّمونه في معبوداتهم. ومن هنا نقول إن كل دين، مهما كان، هو سماوي بالضرورة في نظر معتنقيه" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 11). وبما أن أي دين مهما كان، هو سماوي ومرتبط بالسماء بالضرورة تصبح هذه النسبة غير صحيحة بالبداهة من منطلق غموضها وإبهامها، لأنها تنسحب على أصحاب الديانات الثلاثة وغيرها مما يعتبر كفرا أيضا. ولذلك يضع يوسف زيدان مصطلحا أكثر تمييزا لها وإيضاحا لطبيعتها هو مصطلح "الرسالية أو الرسولية"، من منطلق أنها اتخذت النسق ذاته من حيث تبليغها للناس عن طريق رسل وأنبياء، وهو ما اصطلح عليه محمد أركون "الخطاب النبوي". يقول يوسف زيدان: "ولعلّ الأصح، إذا أردنا تمييز الديانات الثلاث عن غيرها، أن نصفها بأنها ديانات رسالية أو (رسولية) أنها أتت إلى الناس برسالة من السماء، عبر رسل من الله وأنبياء يدعون إليه تعالى ويخبرون عنه الناس" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 11). فاليهودية هي رسالة النبي موسى وأنبياء العهد القديم من بعده، وابتدأت المسيحية بنبوءة يوحنا المعمدان بمجيء السيد المسيح، وأكمل دعوته تلاميذه /الرسل/الحواريون، وكان الإسلام رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا تصبح "السماوية" وصفا غير دقيق، لكن الناس درجوا على استعماله حتى صار كأنه يقينيّ.

4. تفكيك بنية الديانات التوحيدية

تقول البديهية الأولى إذن، أن اليهودية والمسيحية والإسلام هي ديانات رسولية يتلقى فيها الرسول/النبي تعاليه عن الله؛ "ففي الديانات الثلاث المعبود واحد، مهما تعددت صفاته وأقانيمه وأسماؤه، وهو يختص قوما بخطابه الإلهي (...) وهو يصطفي رسله والمؤمنون به، فيرفعهم فوق بقية الناس" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 19). ومن هنا شكلت النبوة عنصرا أساسيا ضمن البنية الكلية لهذه الديانات الثلاث. وانطلاقا من هذه البداهة، سيسعى يوسف زيدان إلى إثبات بداهات أخرى، من ذلك قوله إن هذه الديانات في حقيقتها ديانة واحدة وقد تجلت تجليات ثلاث، لاجتماعها على صفة الإبراهيمية/نسبة إلى إبراهيم الخليل. يقول يوسف زيدان: "يبدو لنا عند إمعان النظر، أن الديانات الثلاث (اليهودية، المسيحية، الإسلام) هي في حقيقة أمرها ديانة واحدة، جوهرها واحد، ولكنها ظهرت بتجليات عدة، عبر الزمان الممتد بعد النبي إبراهيم (أبرام) الملقب في الإسلام بأبي الأنبياء، وهو في المسيحية: جدّ يسوع المسيح لأمه. فكانت نتيجة هذه المسيرة الطويلة، هي تلك التجليات الثلاثة الكبرى (الديانات) التي تحفل كل ديانة منها بصيغ اعتقادية متعددة، نسميها المذاهب، والفرق، والنحل، والطوائف" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 13). فعلى الرغم من الاختلافات الظاهرة على السطح بينها/نقمة المسيحيين على اليهود لتسليمهم السيد المسيح إلى الرومان من أجل صلبه، وموقف الإسلام من التوراة لاعتباره إياها محرفة، إلاّ أن كلتا الديانتين اللاحقتين قد أكدتا على ارتباطهما بأنبياء اليهودية. حيث نجد النبي إبراهيم (أبرام) ملقبا في الإسلام بأبي الأنبياء، وفي المسيحية هو جدّ يسوع المسيح لأمه، وقدمت المسيحية نفسها امتدادا لليهودية مصححة لها في الآن ذاته. وقد جاء في مستهل "انجيل متى" بيان لنسب السيد المسيح على أنه ابن داود بن إبراهيم: حيث أن مجموع الأجيال من إبراهيم إلى داود هو أربعة عشر جيلا ومن داود إلى سني بابل أربعة عشر جيلا، ومن سني بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا. والأمر قد بينه القرآن الكريم بالتأكيد على الطابع العائلي للنبوة والأنبياء (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **الصفحات** 13-14). وقد جاء القرآن حاثا على الإيمان بالأنبياء السابقين، كما أكد نسب النبي صلى الله عليه وسلم العائد إلى إبراهيم الخليل من جهة ابنه إسماعيل. من هنا يظهر هذا الخيط الناظم بنية مشتركة داخل النسق الإبراهيمي ممثلا في النسب الذي يجمع الأنبياء في الديانات الثلاث. وإن كان لاختلاف اللغات والجغرافيا وكذا الأزمنة أثرا في الاختلافات التشريعية فيما بينها لكن الجوهر يبقى واحدا سيصطلح عليه (الإسلام بالمعنى الواسع). وبناء عليه يصل إلى نتيجة مفادها أنه لا جدوى من (التخصص) الموسوم بمقارنة الأديان. يقول: "إنما الأصوب والأقرب عندي، أن نقرن بين الديانات الرسالية الثلاث (الإبراهيمية) أو نقارب بينها، على اعتبار أنها تجليات ثلاثة لجوهر ديني واحد (...) وهي بطبيعة الحال، قاعدة مناقضة تماما للدعوى التي يقوم عليها ذلك المسمى علم مقارنة الأديان" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 20). ويرى أنه إذا كان هناك من ضرورة لهذا العلم، فيجب أن تكون المقارنة بين الديانة المصرية القديمة مثلا أو إحدى ديانات الهند وبين هذه الديانات الثلاث مجتمعة، لأنه في هذه الحالة فقط يكون الاختلاف في الجوهر قائما وبالتالي تكون المقارنة صالحة.

5. في ماهية اللاهوت العربي

يستند يوسف زيدان على البداهتين السابقتين لإثبات بداهة أخرى أكثر تعقيدا، وفقا لمبدأي التحليل والتركيب. وفي هذه المرحلة، يسلط الضوء على التراث الممتد منذ الفترة اليهودية وصولا إلى الفكر الإسلامي المعاصر، لبيان التفاعلات التي حدثت بين تلك الحقب الدينية/التاريخية الثلاث. يقول يوسف زيدان: "حين أنظر إلى التراث الممتد منذ اليهودية المبكرة، حتى الفكر الإسلامي المعاصر، أرى ما أسميه بالمتّصل التراثي، وأستشعر (التساندية) الممتدة بين البنيات الكلية، المؤثرة بتفاعلها التساندي مع بعضها، عبر المراحل التاريخية المتتالية. وهذه التساندية الخفية بين العناصر المؤثرة والبنيات الكلية، تظهر بسببها في الواقع الفعلي تجليات، تنشغل عنها الأذهان بالنظر في تفاصيل الوقائع الفعلية، الجزئية، بدلا من النظر في طبيعة البنية العليا، المستترة، التي أبرزت الواقعة" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 20). يرى يوسف زيدان إذن، أن هناك بنيات كبرى فاعلة ضمن هذا التراث الممتد تؤكد صلة التواصل في هذه الديانة الإبراهيمية الواحدة. وإن كان لكل منها أشكاله وأنماطه التفصيلية الفرعية، المسماة بالمذاهب والفرق. ولتوضيح عمق الصلات بين الديانات الثلاث ينطلق من مجموعة من المقدمات.

من منطلق تأثير السابق في اللاحق - التراث اليوناني ومقدماته المصرية القديمة، تراث عصر النهضة وعلاقته بالأصول العربية التي انتقلت إلى اللاتينية - يضع "فرضية مفادها أن التراث العربي/الإسلامي، لن يمكن فهمه أو الوعي به، من دون النظر المتعمّق في الأصول العميقة لهذا التراث الإنساني الهائل، أعني الأصول الأسبق زمنا، التي كانت بمثابة مقدمات له، وكان هو بمثابة امتداد لها" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 22). فالتراث العربي/الإسلامي كغيره من تراثيات الأمم الأخرى، لم يتشكل من العدم أو يكتمل في فترة زمنية معينة، إنما تشكله مرتبط بتفاعله مع تلك المعرفة السابقة عليه أو المتزامنة معه، والتي سادت وانتشرت في تلك المنطقة التي سكنها العرب والتي سينتشر فيها الإسلام فيما بعد، وهي "المنطقة المسماة بالعالم القديم، أي منطقة شرق المتوسط وعمقها الجغرافي المشتمل على (الهلال الخصيب) الممتد شرقا حتى منطقة القلب الفارسي (الإيراني) وهي المنطقة التي يشار إليها في الدراسات المسيحية باسم مبهم عام، هو (المسيحية الشرقية)." (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 22).

كما يضع فرضية أخرى مكملة للأولى، فقد يحدث العكس أحيانا فيؤثر اللاحق في السابق حين يتعاصران، يقول يوسف زيدان: "والأمثلة الدالة على بداهة هذه الفرضية عديدة، منها مثال واضح هو أثر الأفلاطونية المحدثة في التراث اليهودي الأسبق منها ظهورا، من خلال شروح فيلون السكندري للتوراة وتأويلاته لنصوص العهد القديم، وهي التأويلات التي صارت مع الزمن تراثا يهوديا، مع أنها استمدت مادتها الأولى من أصول فكرية، تالية على اليهودية زمنا، ومختلفة عنها تماما" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 22)، كما يضيف مثالا آخر يتعلق بالجوهر الاعتقادي للديانة اليهودية، حيث يرى أن هذه الأخيرة استكملت منظومتها اعتمادا على الديانتين اللاحقتين؛ المسيحية والإسلام من خلال إدخالها لفكرة البعث، التي خلت منها النصوص اليهودية المبكرة، وصارت في النصوص المتأخرة/المشناة والجمارا جزءا من الديانة اليهودية. ويردف مثالا ثالثا أخيرا لا يقل دلالة على هذه البديهية، "هو أن القس (أبا الفرج بن الطيب) الذي عاش في ظل الدولة الإسلامية، وكان نسطوريا، جمع القواعد والتنظيمات الكنسية والقوانين المنظمة لحياة المسيحيين، في كتاب جعله بعنوان عربي إسلامي قحّ، هو: فقه النصارى" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 23). ليصل من هذه المقدمات إلى حقيقة، أن العلاقة التي تجمع الديانات الثلاث لا تقتصر على التعاقب الزمني، ولكن يتعداه إلى التفاعلات العميقة بينها والتي تؤكد على الجوهر الواحد، المختلفة تجلياته باختلاف الزمان والمكان.

وبتأكيد هذه الحقيقة، سينفسح له المجال لإثبات حقائق أكثر تعقيدا، مثل إعادة النظر في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط، باعتباره تاريخا مشتركا يمتد من منطقة الهلال الخصيب مرورا بمصر وأيضا شمال افريقيا وصولا إلى أوروبا؛ المناطق التي عرفت انتشار هذه التراثيات، بكل ما يشتمل عليه من مظاهر تكررت صيغها الكبرى واختلفت تفاصيلها بحكم اختلاف المكان والزمان. يقول يوسف زيدان: "وكانت غايتي كذلك، إدراك الروابط الخفية بين المراحل التاريخية المسماة بالتاريخ اليهودي/التاريخ المسيحي/التاريخ الإسلامي؛ والنظر إلى هذه(التواريخ) باعتبارها تاريخا واحدا ارتبط بالجغرافيا، وتحكمت فيه آليات واحدة، لابد لنا من إدراك طبيعة عملها في الماضي والحاضر. أو بعبارة أخرى، لا يمكن فهم طبيعة عملها في الحاضر المعيش، من دون النظر المتعمق في طبيعة عملها خلال ماضينا الطويل، المشترك، يهودا ومسيحيين ومسلمين" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 37). ومن هنا يطرح يوسف زيدان مصطلحا جديدا هو "اللاهوت العربي" ليكشف عن تلك الروابط الخفية والمستترة عن الأذهان، والمؤكدة على الجوهر التواصلي للديانات الإبراهيمية الثلاث.

فحوى هذا المصطلح: أن اللاهوت المسيحي لم يخرج إلى الوجود إلا بعد ظهور الاختلاف في وجهات النظر فيما يتعلق بالله وطبيعة المسيح في العقيدة المسيحية، والذي تجلى في تلك المحاولات التي سعت إلى الانتقال من المباحث الكريستولوجية التي تعنى بطبيعة المسيح، إلى الانشغال بالذات الإلهية وصفاتها وعلاقتها بالعالم. وتبعا لهذه الاجتهادات التي اعتبرت "هرطقة" من قبل المؤسسة الكنسية راعية "الإيمان القويم"، كان يتم في كل مرة صياغة (قانون الإيمان) الذي تتحدد بموجبه هذه الآراء الهرطوقية. وقد ظهرت هذه الأخيرة

في المنطقة التي سادت فيها الثقافة العربية من قبل انتشار الإسلام وحتى المسيحية بقرون من الزمان - وهي المنطقة ذاتها التي عرفت انتشار اليهودية أيضا - ويرى أن هذه الاجتهادات/ الهرطقات لم تنجح في مسعاها إلا بظهور الإسلام منتصرا إلى تلك الرؤى التنزيهية التي كانت تسمى أرثوذكسيا: الهرطقة النسطورية والهرطقة الآريوسية. يقول يوسف زيدان: "وهذه الاجتهادات الهرطوقية العربية، الساعية إلى تأسيس لاهوت مسيحي، مضاد للكريستولوجيا الأرثوذكسية وهيمنة المؤسسة الكنسية؛ ظهرت كلها في محيط جغرافي محدد، وبين جماعة بعينها من الناس. فكان ذلك المحيط الجغرافي وكانت تلك الجماعة، هما بذاتهما المجال الذي ظهر فيه، بعد ظهور الإسلام، ما سوف يسمى بعلم الكلام" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 36). لقد شهدت هذه المنطقة/العربية/الهلال الخصيب، ظهور الهرطقات في حين كانت المناطق الأخرى الإسكندرية، مصر واليونان والحواف المتوسطية، راعية للإيمان القويم/الأرثوذكسية. وهي المنطقة ذاتها - في رأيه - (منطقة الشام والعراق) مهد الهرطقات وموئلها، ستكون راعية فيما بعد للاهوت في نسخته الإسلامية/علم الكلام. حيث سيظهر (آباء المتكلمين) الذين سيستكملون مسار أسلافهم المسيحيون، ويصبح معهم علم الكلام امتدادا طبيعيا لما أسماه (اللاهوت العربي). وهؤلاء المؤسسون/الآباء الأربعة المتعاصرون فيما بينهم؛ هم: معبد الجهني، غيلان الدمشقي، الجعد بن درهم، الجهم بن صفوان. وقد لقوا مصائر شبيهة بتلك التي تعرض لها أسلافهم، بسبب ما اشتهروا به بين أهل زمانهم بأنهم يقولون بما يقوله النصارى، لما تتلمذوا عليهم. ويرى أن هرطقتاتهم/زندقتهم ستكون سببا في ظهور مذهب أهل السنة ردا عليها. يقول يوسف زيدان: "ارتبط الآباء الأربعة لعلم الكلام، بالتراث العربي المسيحي السابق عليهم، ارتباطا قويا. وهو ما يظهر جليّا، من خلال (الأساتذة) الذين تلقوا عنهم أفكارهم الكلامية، ومن خلال طبيعة البدع (الهرطقات) التي قالوا بها، فأفزعت علماء المسلمين من أهل السنة، مثلما كانت هذه الهرطقات، قد أفزعت في القرون السابقة على ظهور الإسلام، رجال الكنيسة الأرثوذكسية. بل يمكننا القول باطمئنان، إن قوام مذهب (أهل السنة) الذي نعرفه اليوم، لم يتحدد إلا باتخاذ مواقف محددة من اجتهادات آباء الكلام. مثلما تحددت الأرثوذكسية من خلال مواقفها (التاريخية) من الهراطقة" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 141). فعندما استقر الإسلام في منطقة الهلال الخصيب امتدت الأفكار التي شكلت اللاهوت السابق، إلى الزمن الإسلامي مشكلة بذلك علم الكلام. ومن هنا انشغال المسلمين بالقضية ذاتها/الصفات الإلهية والتي تمتد جذورها إلى المرحلة اليهودية، تم تحولت في المسيحية إلى إشكالية كريستولوجية لا ثيولوجية، ومنها سمي (آباء علم الكلام) بالنفاة والمعطلة أي منكري الصفات الإلهية. يقول يوسف زيدان: "فعلى الأرض ذاتها، وفي أهلها أنفسهم حيث شهدنا نشأة وتطور اللاهوت (العربي) المسيحي؛ كانت نشأة وتطوّر علم الكلام (العربي) الإسلامي.. كانت (العربي) الأولى نمط تفكير، وكانت الثانية نمط تفكير ولغة أزاحت السريانية واليونانية، فنطق الهلال الخصيب بالعربية" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 127). ولتوضيح حدود هذا التداخل بين المسيحية والعروبة والإسلام، وتشكل اللاهوت العربي، يضع يوسف زيدان الشكل التالي:

شكل 1

عنوان الشكل: في تداخل الدوائر

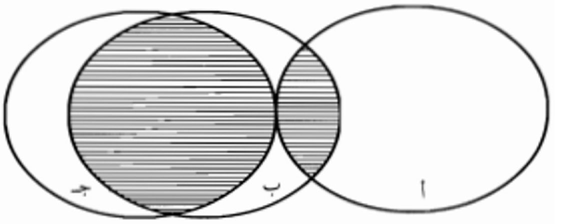

المصدر: يوسف، زيدان: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، ص25.

تمثل الدائرة (أ) التراث المسيحي بكل تنوعاته وتياراته العقائدية المختلفة، وتمثل الدائرة الثالثة (ج) الدين الإسلامي. أما الدائرة (ب) الوسطى بينهما فتمثل العروبة. حيث عاشت زمنين الأول مطمور/سابق للإسلام/جاهلي، والآخر مشهور/ الزمن الإسلامي. ومنطقة التداخل بين الدائرتين (أ) و(ب) هي التي ينتمي إليها اللاهوت العربي/اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الإسلامي. اللذان ينتميان إلى زمانين مختلفين (الدائرة أ) و (الدائرة ج) ولكنه في الحقيقة - كما يقول يوسف زيدان - زمان واحد انفصل في وعينا التاريخي بين مسيحي وإسلامي. والسبب في ذلك هو التداخل الكبير الذي حدث بين الدائرتين (ب) و(ج). حيث بدأ بمقدمات واضحة/القرآن عربي مبين/الأئمة من قريش/الصحابة كالنجوم... ومن بعد ذلك وقائع التاريخ الفعلي لدول الإسلام وكلها أكدت على أهمية (العروبة) في دين الإسلام، مع أنه طرح نفسه دينا لكل البشر. وبالتالي فإن هذا التداخل كان من القوة بحيث قصر العروبة على الإسلام فقط، مع أنها كانت هناك قبل الإسلام وبعده، فحجب بذلك تاريخها الطويل السابق عليه. كما قصر الإسلام أيضا على العروبة مقللا من شأن الأقوام الأخرى التي ستدخل فيه فيما بعد؛ "مع أن الدائرتين [كما يقول] لا تتطابقان بالكامل، فدائرة (العروبة) تضم مع العرب المسلمين، عربا آخرين، منهم الصابئة واليهود والنصارى. بينما تشمل دائرة الإسلام، أقواما غير عرب، كالفرس والقبط والترك وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام من بعد الفتوح، وأعلنوا إسلامهم رغبة أو رهبة" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **الصفحات** 26-27). وبتأكيده على التداخل بين هذه الدوائر الثلاث، إنما يريد إعادة الاعتبار لذلك التاريخ العربي/المطمور بوصفه جزء أساسيا من التاريخ العربي الإسلامي وبوصف هذا الأخير امتدادا له. ومن هنا يصبح

الانفصال الذي حدث على مستوى وعينا التاريخي، نوعا من الوعي المغلوط الناجم عن الفهم الجزئي الذي ينشغل بتفاصيل الوقائع الفعلية الجزئية، بدلا من النظر في طبيعة البنية العليا المستترة التي أبرزت الواقعة. وترسخ هذا الوعي من خلال المناهج التعليمية ذات الطابع الاجتراري، فوقع فيه المفكرون - حسبه - من (المتعمقين) في دراسة علم الكلام الإسلامي و(المتوغلين) فيما يسمى اللاهوت المسيحي. لما " انشغلوا فقط بالجانب الذي فيه يدرسون ويبحثون، فلم يلتفتوا إلى الجوانب الأخرى الخارجة عن مجال نظرهم وميدان اهتمامهم. وقد ظن أولئك وهؤلاء، كلّ من موقعه، أن (العلم) الذي يشتغل به فريد في بابه، متميز بقشره ولبابه، ولا غناء فيما عداه ولا استغناء بغيره عنه. ومن هنا غرق في لجة هذا (العلم) أو ذاك، عقول نيّرة كان من الممكن أن تزداد استنارة وتوهجا، لو نظر كل منهما فيما ينشغل به الآخر". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **الصفحات** 36ـ37)

ومن هنا تصبح هذه الرؤية/المتصل التراثي، التي يطرحها ذات أهمية كبرى، بوصفه اليقين الذي يجب الانطلاق منه في تفسير مختلف القضايا التي تطفر على الساحة الفكرية منها والواقعية، ومنها ظاهرة (علم الكلام). وهو ما يعتبره من المسائل المغيبة كليا من طرف الباحثين من الفريقين الذين انشغلوا بالبحث في أسباب ظهور هذا العلم، فعزوه إلى ظروف داخلية وأخرى خارجية. فـ"في مقابل التأكيد، غير العلمي، لإسلامية (الكلام) كان بعض المستشرقين قد شوشوا على (الحقائق) الخاصة بالامتداد التراثي بين المسيحية والإسلام، واليهودية أيضا؛ بسبب إصرارهم على نفي الأصالة عن المسلمين، ومسايرتهم للنظرية الجوفاء المسماة: التأثير والتأثر" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 163). ولم ينتبه هؤلاء ولا أولئك إلى الصلات التي تجمع اللاهوت العربي وعلم الكلام ودور الجغرافيا في تأكيد ذلك الارتباط. ومن هنا يعيد النظر في (إسلامية) علم الكلام؛ هذه الإسلامية التي يراها موهومة، أفرط الباحثون في التأكيد عليها، وتفنيد الرؤية الاستشراقية التي ساهمت أيضا في تشويش الأذهان عن رؤية هذا المتصل التراثي. ويلفت الانتباه إلى حقيقة أن الفكر الإنساني لا يطفر فجأة من العدم. يقول: إن "(إسلامية) علم الكلام، حجبت (عربيته) الأولى، وأخفت (بداياته) أو خففتها لصالح أطواره التالية، وألغت بالتالي حقيقة مهمة، مفادها أن هذا العلم لم ينشأ أصلا في الإسلام؛ حتى يجوز لنا أن نبحث في أسباب ظهوره ودواعي نشأته. فقد كان ممتدا من قبل، ومدوّنا باليونانية والسريانية، ثم صار من بعد مكتوبا بالعربية" (**زيدان، اللاهوت العربي أصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 162). ولتوضيح هذا الارتباط/الامتداد، سوف يعود إلى جذور الإشكال/أصل الحكاية، لتسليط الضوء على قضايا: الله والأنبياء، والكشف عن الطريقة التي فُهمت بها الشرائع الثلاث شرقا وغربا.

6. امتدادات اللاهوت العربي في علم الكلام الإسلامي

يصف يوسف زيدان اليهودية بأنها شكلت انقلابا على منظومة القيم التي سادت قبلها. ففي الوقت الذي قدمت فيه الحضارات القديمة صورة مثالية للإله المتسامي/المحتجب/المختفي/آمون... ألحق العهد القديم بالإله مجموعة من الصفات الإشكالية/الإنسانية تحديدا، فقد نزل إلى الأرض بعدما كان متعاليا في السماء، حيث يظهر "الله تعالى: قلقا، حسودا، حقودا، غضوبا، نادما، ناسيا، منتشيا برائحة الشواء، مغلوبا.. وهي صفات إنسانية رديئة، ألحقتها التوراة بالإله بكل وضوح، ومن دون أي مواربة، فنشأت مشكلة كبرى ظهر أثرها لاحقا، هي ارتباط (الصفات) بالذات الإلهية". (زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، 2009، صفحة 44) هذه الإشكالية المتعلقة بذات الإله وصفاته ورثتها المسيحية، بعدما طرحت نفسها امتدادا وتصحيحا لليهودية في آن، وحاولت حلها من خلال تلك الصيغة المزدوجة للسيد المسيح (**القيصري**، 1960، **صفحة** 11) المنتمي إلى الأرض والسماء معا. يقول يوسف زيدان: "المسيح في العقيدة الأرثوذكسية (...) هو الرب الكامل، وهو الإله المتجسد، وهو هو. وعلينا هنا أن ننتبه إلى هذا المصطلح الأخير (الهو هو) الذي ظهر أول مرة في المناقشات الكريستولوجية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح (...) ثم ظهر هذا المصطلح (الهو هو) عربيا بعد الإسلام (...) حتى صار نظرية كلامية شهيرة، تعالج مشكلة الصفات الإلهية عند المسلمين؛ انطلاقا من الرؤية المعتزلية القائلة إن صفات الله غير زائدة على ذاته، إذ هي عين الذات.. أي هي هو". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 46)

تحول الطرح الثيولوجي مع المسيحية إلى مشكلة أخرى متعلق بطبيعة المسيح؛ إله هو أم إنسان. حيث ظهرت في المناقشات الكريستولوجية (**ج.ويلز**، 2007، **صفحة** 47) الحادة التي جرت بين الكنائس الشرقية والغربية، والتي نجم عنها الاتهام بالهرطقة الذي طال الأساقفة، وأدت إلى كتابة رسائل الحرومات واللعنات/الأناثيما، "وقد نوقشت هذه الهرطقات (الكريستولوجية) في المجامع المسكونية، على اعتبار أنها مشكلات لاهوتية (ثيولوجية) صرفة. ولم يكن الطرح الكريستولوجي على المائدة الثيولوجية، غريبا بالنسبة للأساقفة آنذاك، خاصة أساقفة الإسكندرية (الأقباط) الذين اعتبروا المسيح هو المعادل التام للرب (الإله، الآب) وأن الله واحد، لأن المسيح والرب: هو هو. إنما الغريب كان على هراطقة المنطقة العربية، هو إصرار الكنائس الكبرى على القول بربوبية المسيح، لا نبوته". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 84) من هنا ننتقل إذن، من الثيولوجيا/صفات الله التي أثارتها اليهودية، إلى الكريستولوجيا/صفات المسيح/ابن الله/الله ذاته ...

وقد كان لتلك الأناجيل الكثيرة التي كانت بين أيدي الناس بعد بدأ انتشار المسيحية وتوسعها في أرجاء المسكونة الدور

الأكبر في الاختلاف الذي حدث في تأويل طبيعة المسيح. حيث خضعت هذه التأويلات للشروط الثقافية السائدة في كل منطقة، من هنا تم تأويل طبيعة المسيح بما هو إنسان/نبي في منطقة الهلال الخصاب لما عرفت هذه المنطقة من قبل أساطير وخرافات خلدتها ملاحمهم (الاينوما ايليش التي تعني حدث في الأعالي)، يظهر فيها عالم الآلهة متعاليا/مستقلا عن عالم البشر حتى وإن كانوا ملوكا، وإن صوروهم في شكل أصنام وأوثان، لكن تبقى هناك مساحة شاسعة بين العالمين، تجوس فيها كائنات وسيطة هي الجن والعفاريت والغيلان. ويقدم التصور العربي /العبري الكاهن والنبي على أنه شخص يخبر بأنباء السماء، مثلما "قدم حمورابي [من قبل] للإنسانية أول قوانين مكتوبة، زاعما أنه تلقاها من الآلهة وحيا. وعلى هذا النحو، استقرت في أذهان الناس أن عوالم الآلهة، مستقلة تماما عن عالم البشر، وخالدة". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 66) من هنا يظهر أن فكرة النبوة قد كانت معروفة ومقبولة في الذهنية التي انتشرت في هذه المنطقة/ الهلال الخصيب، كما كان للعرب أنبياء على شاكلة أنبياء اليهود، "ابتدأ ظهورهم بحسب الاعتقادات العربية القديمة، منذ أيام بختنصر (أيضا) الذي ظهر في زمانه النبي حنضلة بن صفوان الذي بعثه الله إلى أهل (الرّس) فكذبوه وقتلوه. وفي هذا الزمان أيضا كان النبي شعيب بن ذي مهمدم الذي أرسله الله إلى أهل (حضور) باليمن، فقتلوه.. وقبيل الإسلام، ادعى النبوة مسيلمة بن حبيب الحنفي، وهو المسمى من بعد: مسيلمة الكذاب! (...) وكانت له ديانة توحيدية تقول بإله واحد للكون هو: الرحمن رب العالمين. وقبيل الإسلام، أيضا، كان في بني (عبس) نبي اسمه خالد نسبت إليه معجزات باهرة، وقد زارت ابنته بعد وفاته نبي الإسلام، محمدا صلى الله عليه وسلم، فبسط لها رداءه على الأرض، مرحبا بها، وقال: هذه ابنة نبي ضيعه قومه". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 71) هذه الرؤية تخالف التصور الذي قدمه الفكر اليوناني والمصري عن مكانة الكاهن/الحاكم/المتوحد مع الآلهة مانح صكوك الغفران للرعية.

فإذا كانت فلسطين مهد الديانة المسيحية، فإن معالمها ومختلف تصوراتها قد اكتملت بعد خروجها إلى مصر. ومن هنا جاء الفهم اليوناني المصري للديانة مختلفا عن نظيره الشرقي/منطقة الهلال الخصيب والتي ستصبح فيما بعد محلا للهرطقات، "بناء على الفهم المصري القديم لعالم الآلهة ذي الأبعاد الثلاثية (ثالوث: إيزيس، حورس، أوزيريس) وإمكان تمازج البشر بالآلهة (الفرعون ابن الإله) وأن للحياة مفتاحا (عنخ، الصليب) وجواز القيام من الموت وانتظار الحساب (أوزيريس إله الآخرة) والإنجاب من دون نكاح حسي (إزيس تحبل من زوجها الميت)..وغير ذلك" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 63) من الاعتقادات التي عرفها العقل المصري من قبل والذي لا يجد بأسا في تأله الإنسان وتأنسن الإله. وانطلاقا من هذه الخلفية الفكرية سوف يتبلور التصور المصري واليوناني المختلف عن المسيح بأنه هو الله. ثم صار هذا التأويل يمثل الإيمان القويم/الارثوذكسية وكل ما يخالف هذا القول يعتبر هرطقة.

وهكذا استمر الجدال الكريستولوجي حول طبيعة المسيح وأمه وغابت الإشكالية الثيولوجية الأساسية (صفات الله) التي طرحتها اليهودية بعدما غاب الإله وناب عنه المسيح وأصبح (هو هو) حتى ظهور الإسلام. يقول يوسف زيدان: "قدّم القرآن باعتباره لاهوتا عربيا حقيقيا، أو هو التجلي الأخير لهذا اللاهوت؛ حلولا محددة لكل ما كان اليهود والنصارى يختلفون فيه من مشكلات عقائدية. وقد قدم القرآن حلوله، بأن أعاد بناء التصورات الأساسية للألوهية والنبوة". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 115) لم يكن الإسلام إذن منفصلا عن التراث السابق عليه أو رافضا له، فقد جاء مكملا ومصححا في الآن ذاته لمختلف التصورات التي سادت قبله وأعاد بناءها من جديد. وفيه نرى الله تعالى منزها عن كل الصفات التي ألحقتها به اليهودية، وكان لحضوره المهيمن في كل آي القرآن وسوره، أثره في عودة (اللاهوت) إلى الصدارة بعدما غاب مع القضايا الكريستولوجية. حيث "توارى الناسوت فلم يعد مطروحا كأصل إيماني، حتى ما كان مرتبطا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي يتلقى وحي السماء، تنزيلا، مؤكدا تلك المفارقة التامة بين اللاهوت والناسوت، ومعبرا بوضوح عن بشرية النبي". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 120) وهو ما لم يدع مجالا للالتباس الذي كان قد حصل من قبل في المسيحية.

كما أعاد القرآن تقديم الأنبياء اليهود: إبراهيم، لوط، يوسف... وغيرهم في صورة مغايرة تماما لتلك التي نجدها في العهد القديم، بما يتناسب وكونهم أنبياء مصطفين مختارين. وبما أن النبوة شأن إلهي فقد أكد أولا على القرابة والنسب الذي يجمع الأنبياء وفي الوقت ذاته أعاد النظر في التصور اليهودي القاضي بوقف النبوة عليهم دون سواهم، فنجد القصص القرآني يذكر أنبياء عرب أمثال: هود وصالح ولقمان. كما أعاد أيضا بناء صورة السيد المسيح وأمه في الوعي بعيدا عن تلك المساجلات التي عرفتها الكنائس المسيحية، وفيها يظهر المسيح "نبيا" على القاعدة ذاتها التي بعث بها الله أنبياء من قبله ومن بعده إلى عباده مبشرين ومنذرين، وهو ابن السيدة مريم/هبة إلهية بواسطة روح القدس، "ومريم القرآنية ليست ثيوتوكوس، وليست أم النور الحقيقي؛ وإنما هي صدّيقة (قديسة) وهبتها أمها لله، من قبل أن تلدها". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 122) وبهذا لم يخرج الإسلام عما ساد تلك المنطقة من المعتقدات من قبل، بتأكيده ألوهية الإله وبشرية النبي. وعرف المسائل نفسها التي طرحت من قبل فشكل بهذا تواصلا لتلك البنية الفكرية التي حكمها هذا المحيط الجغرافي الواحد. يقول يوسف زيدان: "لما استقر الإسلام في منطقة الهلال الخصيب، شهدت هذه المنطقة ذاتها، تحولات كبرى، امتدت خلالها الأفكار والرؤى التي كانت في

الزمن المسيحي لاهوتا، ثم صارت تسمى في الزمن الإسلامي كلاما. فعلى الأرض ذاتها، وفي أهلها أنفسهم حيث شهدنا نشأة وتطوّر اللاهوت (العربي) المسيحي؛ كانت نشأة وتطور علم الكلام (العربي) الإسلامي". (زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، 2009، صفحة 127) ومن هنا تصبح الغاية من هذا البحث اللاهوتي، إنما هي توضيح عمق الارتباط بين الديانات الثلاث، ومن خلال تفعيل آلية المتصل التراثي يعيد بناء مفهوم ركيزي (علم الكلام)، بربطه باللاهوت العربي، وبالتالي رفض مختلف الآراء السابقة التي عنيت بتعريفه وبيان أسباب ظهوره.

7. في ارتباط الدين بالسياسة والعنف

سعى يوسف زيدان إذن، إلى بيان الجوهر الواحد للشرائع الدينية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، انطلاقا من بداهات: الرسالية، والإبراهيمية، ليخلص من خلال بيانه للتفاعلات التي حدثت بينها إلى القول بأن هناك متصلا تراثيا يجمع تلك الحقب التاريخية في تاريخ واحد. ومن هنا سيسعى إلى الكشف عما يسميه: الأطر النظرية/البنيات الكامنة/دوائر التدين، داخل هذا النسق الكلي بتجلياته الثلاث. وذلك كما يقول، "سعيا لإدراك عمق الصلات بين الديانات (الديانة) الإبراهيمية، واقتراب المسافات بينها على نحو مثير، يثير العجب من فهمنا لها، ومن انهماكنا في الخلاف حولها، وفيما بيننا.. بل واقتتالنا أحيانا مع بعضنا، لإعلاء الحق الذي يعتقده كل جانب، ويعتقله في زاويته هو ظنا من كل واحد منا، أنه وحده الذي يمتلك اليقين التام، وأن (الآخر) ضال، أو منحرف، أو هرطوقي، أو زنديق، أو كافر، أو مرتد.. إلى آخر تلك الاتهامات الوهمية المهولة، الجاهزة للانطباق وقتما دعت الحاجة" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 147). إن الرؤية التي ستنصب عليها معاول الهدم هذه المرة، هي تلك التي تدعي لنفسها امتلاك الحقيقة التامة واليقين المطلق، ويصبح الطرف الآخر بمثابة العدو الذي يجب تدميره بطريقة مادية أو معنوية. ومن منطلق أن هذه الرؤية التي اختصت بها – في رأيه – الديانات الثلاث دون غيرها من العقائد التي تسمى وثنية؛ حيث لم يعرف تاريخيا – كما يقول – أن ديانة منها احتكرت الحقيقة لنفسها وأبادت غيرها ولكن اتخذت النزاعات طابعا سياسيا أو اقتصاديا... سوف يسعى إلى تعريته لتلك البنيات الفاعلة ضمن هذا النسق الكلي/ الإبراهيمي، والجاهزة للظهور كلما تهيأت لها الظروف، ليكشف عن الوهم الذي تنبني عليه هذه الرؤية. وسيعالج هذه المسألة من منظور التدين وليس الدين.

1.7. تفكيك بنية الفعل التديني

يفرق يوسف زيدان إذن، بين الدين والتدين، يقول: "فالدين أصل إلهي والتدين تنوع إنساني، الدين جوهر الاعتقاد والتدين هو نتاج الاجتهاد. ومع أن الأديان، كلها، تدعو إلى القيم العليا، التي نادت بها الفلسفة (الحق، الخير، الجمال) فإن أنماط التدين أخذت بناصية الناس إلى نواح متباعدة، ومصائر متناقضة، منها ما يوافق الجوهر الإلهي للدين ويتسامى بالإنسان إلى سماوات رحيبة، ومنها ما يسلب هذا الجوهر العلوي معانيه ويسطّح غاياته حتى تصير مظهرا شكلانيا، ومنها ما يجعل من الدين وسيلة إلى ما هو نقيض له" (**زيدان، دوامات التدين**، 2013، **صفحة** 7). نحن إذن، أمام خطابات دينية وليست خطابا واحدا، ناجمة عن فعل التأويل/الاجتهاد لأن الدين عموما هو مجرد نصوص لا تملك أي فاعلية من دون الفاعلين بها؛ فهي لا تنطق بذاتها ولكن ينطق الناس بها، وضمن واقعهم الفعلي المعيش. ومع صراع التأويلات هذا، حيث يدعي كل طرف حيازة الحقيقة، تظهر الجدلية الثلاثية: دين/سياسة/عنف. يقول: "ولكن الخطاب الديني في أحيان كثيرة، يتعلق بهموم ومطالب دنيوية، فيخرج بذلك من حيز (الدين) إلى نطاق (التدين) وينسى ملكوت السماء ويطلب المجد الدنيوي وبريق الصولجان الذهبي. ثم يتفرق الناس إلى شيع ومذاهب، يدعي كل منها الحقيقة المطلقة لنفسه، ويسلب الآخرين اليقين. ويصير كل قوم بما لديهم فرحين، مدافعين عن الحق الذي يعتقدون، وبزعم الدفاع عن هذا الحق يقتلون، وبدعوى تمثيل الله في الأرض ينتهكون عرض وأرض عباد الله في الأرض .. فينعكس بالتدين ما أراده الدين". (**زيدان، دوامات التدين**، 2013، **صفحة** 73) ومن هنا سيعيد يوسف زيدان طرح الإشكال المتعلق بالعنف الديني/العنف باسم الدين من زاوية مختلفة؛ من خلال التركيز على بنية التدين، أي فهم المتدينين للدين بوصفهم فاعلين، والممارسات المنجرة عن هذا الفهم. ويحدد ثلاث أطر أساسية أو ما يسميه دوائر التدين، يجدها مشتغلة في بنية التدين في التجليات الدينية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

1.1.7. الإنابة

تمثل الإنابة – عند يوسف زيدان – أولى هذه الأطر المشتركة، ومفادها أن الله تعالى في الديانات الثلاث، واحد ذو طبيعة متعالية عن الخلق، محتجب في السماء. ولأن المتدين يبقى دائما في حاجة إلى الاتصال به، فقد طور مجموعة من الممارسات، حيث تظهر بشكل خاص عبر تجارب: كالقبالة اليهودية والرهبنة المسيحية والتصوف الإسلامي، أو بشكل عام عبر الطقوس ومراسم العبادة، التي يمارسها عموم المتدينين/ أهل الديانة، عبر وسيط/ممثلو الله في الأرض. يقول: "لله دوما عند المتدين نائب، وممثل إنساني، وناطق بلسانه العالي" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 148). وقد قدمت اليهودية عددا من صور الإنابة عن الله مثل: آدم (أب النوع الإنساني ككل) إبراهيم، إسحاق، يعقوب ... (آباء الديانة)، الأنبياء الكبار والصغار، الأحبار، الربيين، فضلا عن أهم نائب عنه ألا وهو موسى عليه السلام. إضافة إلى أخيه هارون ويوشع بن نون. ويظهر هذا النائب في المسيحية في السيد المسيح (الابن) الذي ناب عن الآب السماوي مبشرا بالخلاص من الخطيئة الأولى، وناب الرسل عن المسيح الذي هو في اعتقادهم الرب

ذاته. ويمثل الباباوات والأساقفة والكهنة أيضا نوابا عن الله إذ ينطقون بالإنجيل/اللوغوس. والأمر غير مختلف إذا ما جئنا إلى الإسلام. حيث يظهر لهذه النيابة أشكال متعددة، حيث يمثل الصحابة والتابعون وتابعيهم نوابا لله ناطقين بالحق الذي أراده، وصولا إلى المجددين الذين أخبر عنهم الحديث. وكما أن هناك نائبا/سياسيا يتمثل في الحاكم الذي هو في الإسلام ظل الله في الأرض، هناك أيضا نائب/شرعي في التعامل مع المؤمنين: الإمام عند أهل السنة والامام المعصوم عند الشيعة والقطب عند المتصوفة، يأتي بعدهم: المجتهد والمفتي أيضا، آية الله، الداعي، البدل، شيخ الطريقة، وهناك المفتي...

ويخلص يوسف زيدان إلى أن هناك إطارا نظريا عاما لهذه الانابة أو التمثيل عن الله ظهر في الديانات الثلاث، حيث يتمثل في مجموعة من الأشخاص الذين توكل إليهم هذه المهمة بعد اصطفائهم وتمييزهم عن سائر الناس، يكون مشفوعا عند بعضهم بمعجزات أو كرامات أو علامات مبهرة. ومما تتميز به هذه الإنابة وكان مشتركا أيضا في هذه التجليات الثلاث: أنها لا توكل إلى امرأة، إذ هي موقوفة على الرجال فقط دون النساء.

2.1.7. الإبادة

يرى يوسف زيدان أن: "الوعي التديني، في اليهودية والمسيحية والإسلام، يصور الله قائما بالكون وفاعلا للإبادة، وأن نائب الإله في الأرض أو الناطق باسمه، مادام يمثله، فقد يدمر مثله ويبطش" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 154). تلخص هذه الدائرة الثانية، أن التصور التديني ضمن هذا النسق الإبراهيمي الثلاثي، يجعل الله فاعلا للإبادة/باطشا بأعدائه والأمر ذاته بالنسبة لنائبه أيا كانت صفته، حيث يتخذ الإبادة وسيلة لتحقيق الأمر الإلهي. وقد ظهرت هذه البنية أولا في القصص التوراتي. فالمتأمل فيه يجد نفسه أمام مجموعة من الصفات الإلهية، والتي تنم في معظمها عن بأس شديد خاصة ضد الأمم من غير اليهود الذين جعل الإله نفسه حاميا لهم ومن أجلهم يقوم بحملات إبادة جماعية. يقول يوسف زيدان: "والإله في التوراة على كل حال، عهده بالمحو والإبادة قديم. فقد بلبل ألسنة أهل بابل كلهم، ودمّر سدوم وعمورية لفسق رجالهم، فأخذهم أخذة واحدة فأبادهم جميعا، رجالهم ونساءهم وأطفالهم. والله في ليلة الفصح، ضرب كل بكر بأرض مصر، حتى بكر البهائم، لم يسلم من تلك الإبادة الإلهية المقدسة، التي بلغت ذروتها(...) في حروب الرب التي قادها يهوشع بن نون، وأباد خلالها قرابة الثلاثين مملكة، وفقا للرواية التوراتية". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **الصفحات** 152-153) ومن هذا المنطلق يصبح العنف ضمن هذا الوعي الديني/التوراتي مشروعا ومقدسا بعدما أصبح نابعا من الاله ذاته واستلمه من بعده نائبه الناطق بلسانه. ومن هنا أيضا لا نستغرب اليوم، حينما نرى اليهود يتفنّنون في إخلاء فلسطين من ساكنيها، تحقيقا لوعد الرب؛ لنسلك يا إبراهيم أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات.

وقد تم قبول هذه الصورة في المسيحية الأرثوذكسية باعتبارها العهد القديم، ومن هنا اعتبر "مرقيون" مهرطقا بعد أن أنكر العهد القديم وقوله باختلاف إلهه عن إله الأناجيل. حيث صرح المسيح بأنه لم يأت لإلقاء سلام في الأرض بل لإلقاء سيف، والمطلع على تاريخ الكنيسة سيقف على تلك المجازر التي ارتكبها المسيحيون باسم الرب ضد الوثنيين والتي راح ضحيتها الكثير من العلماء الذين اشتغلوا بمختلف العلوم وتم هدم معابدهم ومدارسهم، وقد صور يوسف زيدان هذا المشهد في روايته "عزازيل" أحسن تصوير بعد أن تناول قصة مقتل عالمة الرياضيات هيباتيا على يد مجموعة من المسيحيين. يقول يوسف زيدان: "إن الذين اضطهدهم أسقف الإسكندرية كانوا من علماء ذاك الزمان، ومنهم "أولمبيوس" كاهن معبد سيرابيس(...) لا، بل إن الفرق بين الاضطهادين بعيد، لأن الاضطهاد الوثني كان عن سياسة واقتصاد فقط، أما الاضطهاد المسيحي فكان عن غلو في دين أساسه الرحمة. وبعد هذا الاضطهاد، لم يبق للوثنيين معابد ولا مدارس يأوون إليها بالإسكندرية. فانسحب البعض منهم إلى كانوبيس (رشيد) وفتحوا هناك مدرسة لتعليم الكتابة القديمة، وتحولت معابدهم إلى كنائس بعدما طمست نقوشها وصورها بالطين". (**زيدان، دوامات التدين**، 2013، **صفحة** 46) لكن هذا العنف/التديني لم يتوقف عند هذا الحد حيث امتد إلى المسيحيين أنفسهم من خلال الاتهامات التي كالوها لبعضهم والتي تتعلق بالهرطقة والخروج عن الدين القويم وما انجر عنها من مذابح جماعية، "وهو ما حدا بكاتب قديم إلى التصريح بتلك العبارة الجارحة، التي نقلها لنا كاتب مسيحي معاصر هو إدمون ربّاط، الذي نقل عن إمياثوس مارسلانوس، قوله: لم ير التاريخ بهائم متوحشة، أشد افتراسا وقساوة من المسيحيين، بعضهم لبعض". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 112) والأمر غير مختلف عما كتبه فولتير في قاموسه الفلسفي حيث "يوضح هنا كيف غالت الكنيسة في دور الشهادة في تاريخها نفسه: هل تريد هجمات موثقة على أفضل نحو - مذابح مؤكدة على أفضل نحو، أنهار من الدماء تدفقت حقا - آباء وأمهات وأزواج ورضعا نحرت حناجرهم في الواقع، وكدست جثثهم واحدة فوق أخرى؟ وحوش غاشمة! ابحث عنها في حولياتك الخاصة: ستجدها في الحملات الصليبية على الكاثاريين... في يوم القديس بارثولوميو المروع" (**هيكت**، 2014، **الصفحات** 582-583). إضافة إلى هذه الحروب التي قادوها ضد بعضهم بعضا باسم الرب، تلك التي جرت بينهم وبين المسلمين ممثلة في الحروب الصليبية.

ومن الناحية الإسلامية، يرى يوسف زيدان، أن المسلمين قد خرجوا عبر الغزوات والفتوح لنشر دين الله، استنادا إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ويشرح معنى كلمة "يثخن" بقوله: يطعن بالأسلحة، ويبالغ في القتل (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 18). ويرى في هذه الآيات القرآنية، تأكيدا للإبادة الإلهية، وهو ما تحاشى علماء

العقيدة المسلمين والمتكلمون الخوض فيه مرجحين صفات الجمال الإلهي على صفات الجلال. وكان المتصوفة أكثر جرأة في طرحها بعدما قرروا أن الألوهية جامعة للأضداد. تصبح الإبادة إذن بنية أساسية ضمن هذا الوعي التديني للنسق الديني الإبراهيمي، ونتيجة لهذا الفهم شهد التاريخ الإنساني والمعاصر منه أعمال عنف وإبادة تحت راية الدين.

7. 1. 3. **الخروج**

يقول يوسف زيدان: "تبقى لنا هنا مسألة ثالثة، أخيرة، تصل ما بين التراثيات اليهودية والمسيحية والإسلامية، أو هي بالأحرى تؤكد امتداد التراث المشترك، الواحد، المسمى في مرحلة مبكرة يهوديا، وفي ما بعدها مسيحيا، وفي التالية عليها إسلاميا. وهي مسألة (الخروج) التي يمكن تمييزها كأحد الأطر النظرية للتجارب والتجليات الدينية الإبراهيمية" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 154). يمثل الخروج إذن، فيما يرى يوسف زيدان، المسألة الأخيرة ضمن ذلك الخيط الناظم، والمؤكدة على الامتداد التراثي المشترك بين التجارب/التجليات الدينية الإبراهيمية الثلاث، فهو ملمح أصيل وبنية متكررة ضمن الوعي التديني الكلي لها. فكيف يتشكل الخروج؟

يكون الخروج انطلاقا من بنية اعتقادية معينة مخالفة لما درج عليه المجتمع، فيتخذ طابعا مقدسا لاستناده إلى إيمان خاص/الإيمان الحق. كما يتخذ شكل الرفض والثورة على ما يعتبر باطلا من العرف السائد، "انطلاقا من اعتقاد المجموعة (الخارجة) بأنها على الحق، وبقية الناس على الباطل. وانطلاقا من إعلاء إيماني للذات لتسويغ الحط من الآخرين والنظر إليهم باعتبارهم أغيارا، تمثل السلطة السياسية السائدة غيريتهم، وتجسد اختلافهم عن الجماعة المنبثقة، ومن ثم: الحكم بضلال الأغيار (الآخرين) وكفرهم" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 155). يمثل الخروج إذن، نوعا من الثورة على السلطة السياسية/راعية الدين الحق، ويهدف إلى تثبيت دعائم هذه الجماعة الجديدة المتحصنة بعقيدتها. هذه الأخيرة ستكون محلا لخروج آخر فيما بعد، بعد استقرار تلك الجماعة.

ويتم الخروج - حسبه - على النحو التالي: إقرار بالإله المتعالي، وبتأييده لنائبه على الأرض/رأس الجماعة. ويأتي بعد هذه الأطر النظرية أحكام عملية مثل: الحكم بالكفر والضلال على المحيط الاجتماعي، انبثاق جماعة تجاهر باعتناقها هذه العقيدة الجديدة، فيتم اضطهادها، لذلك تلجأ إلى الهجرة فرارا والنقلة الجغرافية، وهنا يتم بناء مجتمع جديد على هيئة دولة وليدة تتغذى على كراهيتها للمحيط الذي انبثقت عنه. وتظهر تطبيقات هذه البنية: أولا في خروج النبي إبراهيم وابن أخيه لوط، والخروج الأشهر والذي أفردت له التوراة السفر الثاني من أسفارها وهو خروج النبي موسى باليهود من مصر، "حيث وقع التيه اليهودي الذي امتد أربعين عاما، انتهت بوفاة النبي موسى ودخول خليفته يهوشع بن نون، إلى أرض الفلسطينيين التي صارت مسرحا دمويا لحرب الإبادة التي قادها لتحقيق الوعد الإلهي (العهد القديم) بمنح الأرض لذرية إبراهيم التوراتي" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 155). وعلى النحو ذاته، وباسم الرب أيضا، تم خروج السيد المسيح على اليهود/حين قلب عليهم الموائد، كما خرج تلاميذه إلى الأنحاء المجاورة يكرزون/يبشرون. وبعد أن استتب الأمر للكنيسة التي صارت من بعد الاضطهاد سلطوية وإمبراطورية، عادت منبثقا لخروج آخر أطلق عليه اصطلاح (الهرطقة).

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة بعد أن اضطهد فيها ليشكل دولة جديدة في المدينة، ومنها انطلق المسلمون فاتحين للبلاد المجاورة فكانت دولة الإسلام. والتي ستحتضن خروجا آخر/مقدسا باسم الايمان القويم فيما بعد؛ الخوارج (المحكّمة) الذين رفضوا التحكيم وخرجوا عن الجماعة. ومن هذه الزاوية يفسر يوسف زيدان طبيعة الجماعات المعاصرة مثل القاعدة والجهاد. يقول: "ولن تنتهي تطبيقات بنية (الخروج) الكامنة كإطار نظري جاهز للاستعمال، في الديانة الرسالية الإبراهيمية. فها نحن اليوم نشهد على المنوال ذاته، ما يسمى بتنظيم القاعدة. وهو في واقع الأمر، ليس تنظيما (...) وإنما خروج عن السائد، استنادا إلى قاعدة إيمانية، ومجاهرة بالجهاد، واضطهاد، وانزواء في أفغانستان، وتأسيس دولة طالبان". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 159) ومن هنا يصبح الخروج ملمحا أصيلا ضمن التجربة الدينية/السياسية للديانات الإبراهيمية الثلاث، وليس حكرا على تجل معين. وعن الصلة التي تجمع الدوائر الثلاث (الإنابة، الإبادة، الخروج) يقول: "فالخروج لا يكون إلا انطلاقا من أن رأس الجماعة الخارجة، هو الناطق بلسان الرب، الإله، الله؛ حسبما رأسنا عند كلامنا عن الإنابة. ثم يستلزم الأمر شدّة مستمدة من الله القاهر المبيد[الإبادة]، ولذلك يتم استعمال النصوص الدينية المؤكدة قهره تعالى وإبادته" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 158). ومستشهدا بثورة الخميني - التي رفعت شعار: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد - أيام استيلائها على السلطة في إيران، يؤكد يوسف زيدان على فعالية تلك البنى الكامنة في أصول الدين الإبراهيمي، في إثارة مجموعة من القضايا الفرعية قديما وحديثا. ومن هنا إصراره على جعل المتصل التراثي، المنطلق/اليقين الذي سيبني عليه تفسيراته لما كان قد وقع في الماضي وما سيقع في المستقبل.

ومن خلال كل هذا يظهر العمل المنهجي الذي يقوم به يوسف زيدان، فبعد تحليل الظاهرة/التدين إلى عناصرها الأولية والكشف عن بنياتها الفاعلة، تأتي مرحلة التركيب حيث استنتج فاعلية تلك الدوائر الثلاث ضمن هذا النسق الديني الكلي/الإبراهيمي. وبكشفه عن ارتباط تلك البنيات فيما بينها وتفاعلها معا ضمن هذا النسق الديني، فهو يتغيى في الآن ذاته إيضاح الأهمية التي يكتسيها منظوره التفسيري الجديد/المتصل التراثي، بما هو بحث جذري في أصول الظواهر قادر على توجيه العقل الوجهة الصحيحة التي تتصل به إلى اليقين، بدل

الاشتغال بالتفاصيل التي تشوه الحقيقة وتبعث على التوهمات. وبمناقشته للعلاقة الجدلية بين: الدين/العنف/السياسة، يكشف عن تطبيقات تلك الدوائر على أرض الواقع.

2.7. ارتباط الدين والسياسة

يسعى يوسف زيدان من خلال المقدمات السابقة إلى الوصول إلى يقين آخر، يتمثل في فهم ارتباط الدين بالسياسة وبالعنف عبر هذا التاريخ الطويل اليهودي والمسيحي والإسلامي، ومن خلال مجموعة من المقدمات التي ينطلق منها، سيفند ما يتم ترديده من قبل مفكرينا المعاصرين؛ ملخصا في فكرة (العلمانية) – علما أنها عرفت من قبل أيضا في اليهودية والمسيحية – قائلا بأنها ستبقى دائما كما كانت "محض توهم تبدده حقائق التاريخ العقائدي للديانات الرسالية الثلاث (الإبراهيمية) التي امتزج فيها الدين بالسياسة امتزاجا شديدا، يصعب معه في كثير من الأحيان، تمييز ما هو سياسي مما هو ديني" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 167). ومن منطلق تاريخي بحت، سيعمل على هدم الدعاوى العلمانية، القائلة بفصل الدين عن الدولة، بتعرية طبقات ذلك التاريخ الجامع بينهما، والكشف عن تشابك خيوط نسجهما.

يرى يوسف زيدان أن السياسي كان موجها للديني منذ المراحل الأولى لليهودية؛ حيث تمت كتابة التوراة بعد السبي البابلي، كما ظهرت عقائد يهودية أساسية على غرار فكرة الماشيح تحت وطأة القهر الذي تعرض له اليهود ردحا من الزمن. ويوجه الديني السياسي اليوم أيضا – كما في الماضي البعيد – بإعلان دولة إسرائيل وسعي اليهود إلى إفناء الشعوب الساكنة في أرض فلسطين وطردهم خارجها تحقيقا للوعد الإلهي. وفي الإسلام، يرى أن الديني أيضا وجه السياسي، فما كان الدين ليتم لو بقي القرآن على صفته المكية وبقي المسلمون على حالهم/مستضعفين في الأرض. ولذلك تم تجاوز مرحلة الحكاية عن النبوات والأمم السابقة وإثبات الألوهية وغيرها من أصول الإيمان، إلى مرحلة عملية تتمثل في تأسيس الدولة وفق تشريعات معينة، والانهماك ضمن الواقع المعيش، ومنه وقائع الفتوحات وما انجر عنها من عقد للتحالفات والمعاهدات، وكتابة المراسلات وتنظيم الجيش. يقول يوسف زيدان: "إن التاريخ الإسلامي، مجمله وتفصيله، يؤكد أنه لولا الدولة ما كان الدين، ولولا التشريعات العملية ما كانت العقائد الإسلامية، ولولا الجهاد ما انتشر دين الله بين العباد". (زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، 2009، صفحة 168) وبالحديث عن الحقبة المسيحية، يرى أن تاريخ الكنيسة ليس مفردا للقديسين والشهداء، مع أن المسيح أكد أن مملكته ليست من هذا العالم/ترك الذهب للقياصرة. فلا يمكن التأريخ للمسيحية بعيدا عن ارتباطها بالسلطة السياسية القائمة وهو ما ظهر عبر تاريخ المسيحية الطويل. حيث كان الملوك والأباطرة ينصبون الأساقفة والبطاركة ويخلعونهم كيفما دعت الضرورة والمصلحة السياسية لا الدينية. ومن الأمثلة التي يسوقها؛ دعم الملكة زنوبيا لبولس السميساطي، وتنصيب الملكة ماوية بطرس العربي أسقفا. ومن الزاوية نفسها جاء اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية، كإحدى ديانات الإمبراطورية فصار بهذا يلقب نصير يسوع ولم يكن اعتناق المسيحية غايته، حيث كان اهتمامه منصبا على كيفية إتمام سيطرته على تلك المناطق وضمان تدفق القمح والمحاصيل منها. ويروي التاريخ الكنسي وقائع انتصار هذا الإمبراطور في مجمع نيقية للأسقف إسكندر حيث عزل آريوس للأسباب سالفة الذكر، ويصف في نص الرسالة التي بعث بها إلى الأسقفين أن خلافهما الكريستولوجي وضيع ومضيعة للوقت (**زيدان، عزازيل**، 2008، **صفحة** 66)، كما قام أيضا بعزل الأسقف السكندري أثناسيوس الرسولي من منصبه بعد أن سمع إشاعة مفادها أن هذا الأسقف ينوي عرقلة خروج القمح من مصر إلى القسطنطينية. وعلى هذا المنوال سار مختلف الأباطرة من بعده. وما حدث أيضا بعد سنوات طوال في مجمع إفسوس الأول، تكرارا لما حدث من قبل في مجمع نيقية، حيث عزل الأسقفان المتعارضان: كيرلس ونسطور، ثم بعد فترة أعيد الأسقف الأول/كيرلس إلى منصبه بقرار إمبراطوري لا بقرار مجمع كنسي "وكأن الفيصل النهائي، هو أمر سياسي لا ديني! فالمهم أن تهدأ الأحوال العامة على أي وضع كان، بحيث تضمن الإمبراطورية وصول سفن القمح (الخبز) والعنب (النبيذ) من مصر، عبر بوابة الإسكندرية التي تهيمن عليها رئاسة الكنيسة المرقسية". وللسبب ذاته تغاضى الامبراطور عن قتل الفلاسفة والعلماء والفنانين وعلى رأسهم عالمة الرياضيات هيباتيا من قبل الكهنة المسيحيين. ومن هنا يستنتج كيف انقلب "السجال الكريستولوجي، العتيد المديد، سجالا دينيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 174). حيث لم يعد الدين هو الموجه الوحيد للرأي، وانتقل من الكنائس والأساقفة إلى الامبراطور وصارت كلمته هي الفيصل. يتساءل يوسف زيدان بعد كل هذا التطواف تاريخيا، "فكيف لنا، بعد ذلك كله، أن نزعم مع الزاعمين، أن الدين قد ينفصل عن السياسة، وأن السياسة قد لا يكون لها شأن بالدين". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 175) مستنكرا القول بفصل الدين عن السياسة وهي التي كانت محايثة له جنبا إلى جنب عبر تاريخ المنطقة الطويل. وسوف تتضح معالم الرؤية التي توضح العلاقة التي يجب أن تجمع الطرفين/الدين والسياسة، من خلال الحلول التي يقترحها للمشاكل التي يشهدها الحاضر.

3.7. آليات تشكل العنف

بات ارتباط العنف بالدين إشكالا ملحا يفرض نفسه على الساحتين الواقعية والفكرية المعاصرة شرقا وغربا لازدياد عمليات العنف والعنف المضاد، تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم محاربة الإرهاب الديني، والتي تشهدها المنطقة العربية خاصة. ومن هنا كان من الضرورة بمكان إيجاد حلول مناسبة لهذه الظاهرة المتزايدة، وهو ما يقترحه يوسف زيدان. ولكن هذه الخطوة تسبقها خطوة أخرى ضرورية، تتمثل في البحث

جينيالوجيا في ظاهرة العنف، والكشف عن النسق العام الذي تشتغل ضمنه. فما هي الرؤية التي ينطلق منها يوسف زيدان؟ وماهي الحلول التي يقترحها لحل هذا الإشكال؟

يسعى يوسف زيدان إذن، إلى اكتشاف العلاقات الأساسية التي تجمع الأطراف؛ الدين/السياسة/العنف واستبصار الروابط الخفية التي تجمعها، ومن هنا يتخذ الجدل/الديالكتيك أداة تفسيرية لهذه العلاقة الكامنة بينها. فالجدل حسب الطرح الهيغلي "بموجبه تتكشف الأشياء كلها في عملية تطورية مستمرة لابد لكل حالة وجود فيها من أن تتمخض عن نقيضها. ثم لا يلبث التفاعل بين هذين النقيضين أن يفضي إلى مرحلة ثالثة يندمج فيها النقيضان - اللذان يهزمان ويتحققان في الوقت نفسه - في تركيبة أغنى وأسمى، تركيبة سرعان ما تتحول بدورها إلى القاعدة التي تسند عملية تناقض وتركيب جدلية (ديالكتيكية) أخرى" (**تارناس**، 2010، **صفحة** 452). ومن هذا المنطلق يصبح الدين والسياسة طرفان متناقضان؛ دنيا/آخرة، جماعة/فرد،... لا يلبث التفاعل بين هذين النقيضين أن يفضي إلى مرحلة أسمى تمثلها مرحلة الاعتدال حيث يرتقي كل بجانبه من خلال تفاعله مع الآخر، وهذه المرحلة الثالثة ستكون محل انبثاق تناقض وتركيب آخر مستمر. وفي كل مرحلة من مراحل المواجهة بين المتناقضين يدخل العنف طرفا ثالثا في هذه المواجهة. وبيان ذلك فيما يلي.

يرى يوسف زيدان أن للدين والسياسة مداران قائمان بذاتهما من الناحية النظرية ولكل منهما (افتراضا) مساره الخاص. حيث إن مدار السياسة على محو الحاكم كيفما كان شكله: امبراطورا، ملكا، شيخ قبيلة، أو كان الحكم بيد جماعة ضباطية، ديموقراطية، أوليجاركية. كما أن الطبيعة الأولية لها جمعية، حيث تتعلق أساسا بالجماعة الإنسانية وتغيب في غيابها. ومدار الدين على محور الإله/علاقة الفرد بالإله. لكن إمعان النظر يجعلنا نكتشف أن الأمر أكثر تعقيدا مما يبدو عليه. حيث يرى "أن هناك تداخلا إهليليجيا بين دائرتي الدين والسياسة، وتقاطعا في المدار العام لكليهما. فلا يمكن للسياسة أن تضبط الجماعة إلا بضبط الفرد، ومن الجهة المقابلة لا يمكن للفرد أن يؤسس يقينه الديني الخاص، إلا انطلاقا من مخزون (القداسة) التي تنبع من المجتمع، وتعد الجماعة مصدرها الأول". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 178) وعن هذا الارتباط الضروري ينبثق مظهر آخر ضروري أيضا ألا وهو العنف. ويمثل على هذه الحركة الثلاثية بالانقلابات والاعتدالات التي تحدث في فصول السنة. حيث يبدأ الانقلاب الأول في مجال الجدل الديني/السياسي بانبثاق الدين الجديد الذي يتخذ شكل الثورة على النظام السياسي الراسخ من قبل، ويسعى إلى إيجاد مكان له. وبخروجه من شخص النبي/الفرد إلى الجماعة التي هي مجال الضبط السياسي، يبدأ العنف ويدخل المجتمع في حالة شتوية.

يصبح العنف إذن، طرفا ثالثا ضمن جدلية (الدين/السياسة) في زمن الانقلاب الشتوي، ويأتي غالبا من قبل النظام السياسي/الأقوى، ضد الديني/الأضعف، الذي يمثله جماعة المؤمنين الأوائل (موسى وأتباعه في اليهودية، المسيح وحواريوه، وأوائل المؤمنين في الإسلام) وهنا يكون الخروج رد فعل ضد ذلك العنف المسلط من قبل النظام السياسي الذي يطلب الدنيا بينما يطلب الدين الآخرة. وبينما يهدأ هذا العنف، يتنامى الدين الجديد تدريجيا في الأرض التي خرج إليها، ويعود بعد حين لاجتثاث السلطة السياسية القديمة. وبعد هذه العودة، يحدث ما يطلق عليه يوسف زيدان "الاعتدال الأول"(مرحلة التركيب) بين الديني والسياسي. يقول: "إن الملوك اليهود القدامى، وأباطرة روما الذين آمنوا بالمسيحية، ومبادئ الإسلام بعد فتح مكة، وهي المبادئ التي من مثل: الناس معادن خيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام.. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. كلها دلائل على بدء (الاعتدال الأول) بين الدين والسياسة، وهي مؤشرات تؤكد إرساء قواعد التعايش بينهما في نظام اجتماعي جديد، تصير فيه السياسة متدينة ويصير الدين سياسيا" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 180). في هذه اللحظة إذن، يتقارب الطرفان ويرعى كل منهما الطرف الآخر. وحيث يرسي الدين مبادئه وقواعده التي تصبح مجلوة في مرآة الحياة اليومية للجماعة ويصبح بمثابة الواجبات الاجتماعية، تجدد السياسة نفسها فيتخذ الحاكم السياسي الوشاح الديني ويصير الظل العالي للإله في الأرض. وهنا يخفت العنف ولا يظهر إلا في حالات متطرفة.

على أن التوحد الافتراضي الذي يحدث أحيانا في هذه الحالة/الاعتدال، يخفي في عباءته نوعا من التعدي وتبادل الأدوار؛ أي تعدي الحاكم على أرض الدين من أجل تأكيد سلطته، أو تعدي رجل الدين على ميدان السياسة لتكريس نفوذه، ويجعل المبادرة للديني. يقول يوسف زيدان: "مثل ما عرفناه في تاريخ اليهودية من جماعات (منشقة) كالأسينيين. ومثل ما حدث في المسيحية القديمة من مذاهب، كالنسطورية وفي المسيحية الوسيطة من اتجاهات بروتستانتية، وفي المسيحية الحديثة من جماعات روحية ذات طابع خاص، كشهود يهوه وجماعة الأنقياء (البيوريتانيين). وهو ما نرى مثيلا له في تاريخ الإسلام، من حركات: الخوارج، الشيعة، الوهابية، الجماعات السلفية المعاصرة.. ومع هذه الانبثاقات، تتبدل الأحوال ويبدأ الانقلاب الصيفي". (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 182) في هذه الحالة تصير الجدلية السابقة؛ دين/سياسة أكثر تعقيدا.

تستند هذه الانبثاقات الجزئية إلى قراءة خاصة لأصل العقيدة مخالف لرأي الجماعة من جهة وللسلطة السياسية من جهة الأخرى واللتان استقرتا زمن الاعتدال. فتتخذ (قراءة الخروج) هذه شكلا رافضا، راديكاليا، غير توافقي، غالبا ما يتم استدعاؤه من الضفاف المتشددة، حيث كانت متوارية في ظل الاعتدال الربيعي. وهنا يدخل العنف مرة أخرى طرفا ثالثا ضمن الجدلية، "فباسم الدين، تتجه الجماعة الدينية الراديكالية للعنف المزدوج: ضد الواقع السياسي، وضد الاعتقادات

العمومية السائدة في الجماعة. فتلغي مشروعية الحاكم، وتدين القراءات المخالفة لرأيها الديني؛ لأنها كانبثاقة فرعية تواجه الاثنين معا" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 183). وفي مواجهتها للسلطتين معا، تجد نفسها أمام عنف مضاد. حيث تمارس السلطة السياسية العنف المنظم ضد هذه الجماعة الدينية المنبثقة للقضاء عليها بدعوى حماية أمن الجماعة واستقرارها، دون الانتباه إلى أنها تنتمي إلى تراث الجماعة وكامنة في موروثها حيث لم تسنح لها الظروف للظهور إلى العلن. وفي ظل ازدياد تشدد الطرفين، تزداد حدة الرفض للآخر ومعها العنف، الذي يصبح (جهادا مقدسا) لدى الجماعة الدينية ويصير لدى السلطة السياسية حقا مشروعا، وتنعدم فرص التفاوض أو إعادة التوازن أو حتى الاعتزال. وقد يحدث أن تتلاشى هذه الجماعات تحت الضغط السياسي المتزايد، كما يمكن أن تتخندق جغرافيا حيث تتحصن في موضع معين، وهو ما حدث قديما باعتصام دولة الشيعة الإسماعيلية بقلعة (ألموت) الحصينة، ويحدث في الزمن الحاضر حيث انزوت دولة أسامة بن لادن في حضن طالبان والحصون الجبلية بأفغانستان.

ويرى أن تجليات هذه الحركة الثلاثية لا تقتصر على الحدود الجغرافية الضيقة لهذه الجماعة الانبثاقية، ولكنها تصير عابرة للحدود السياسية، مثلما حدث في ثورات الخوارج في أنحاء دولة الإسلام، والاغتيالات التي نفذها أصحاب قلعة ألموت/الحشاشين الذين اشتهروا باغتيال الحكام. ولا يزال الأمر متكررا في زمننا الحاضر، ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير الأحداث في أفغانستان، مجازر السياح، واعتقالات رموز الجماعات المتشددة بمصر، تفجيرات السفارات بإفريقيا، أحداث الحادي عشر سبتمبر، ثم الحرب الأمريكية على مغارات الجبال الأفغانية، توغل أمريكا في العراق، تراجيديا الشرق الأوسط وما يحدث في فلسطين ... وغيرها من تجليات العنف التبادلي/عنف وعنف مضاد، الذي يشهده العالم في الآونة الأخيرة. مما جعل هذا الجدل الثلاثي يتحول إلى حالة الدوامة، حيث تختلط الأدوار وتتبدل المراكز، فيكون السياسي دينيا وعنيفا ويكون الديني سياسيا وعنيفا، ويكون العنف دينيا وسياسيا. (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 184)

وفي ظل حالة الجنون هذه، وبسبب آثارها المدمرة التي يشهدها الزمن الحاضر الذي يعج بدوامات عنف شديدة منبثقة عن أسباب منطقية وأخرى غير منطقية، لابد من تفعيل دور التعقل. ومن هنا يحدد يوسف زيدان هدفه التالي بمحاولة استشراف أفق التعايش السلمي بين الدين والسياسة، والتوازن العادل بينهما، أي دون تغليب طرف على آخر وهو ما يفعله المفكرون السلفيون منهم كما التنويريون، بحيث يتم تجنب دخول العنف كطرف في هذه المعادلة، ويوجز ما يراه حلا للخروج من المأزق الراهن في النقاط التالية:

الفهم والتفهم: يرى أنه لا بد من الفهم العميق لطبيعة كل ما هو ديني وما هو سياسي، والذي يتيح الاعتراف المتبادل بمشروعية النظرة السياسية وضرورة الرؤية الدينية بالنسبة للمجتمعات. وتكريس هذا الوعي لدى الأفراد عن طريق برامج تثقيفية ومناهج تربوية، بعيدا عما يعتبره "الطنطنة" العلمانية الجوفاء بانفصال الدين عن السياسة، وكذا التظاهرات الخرقاء المسماة حوار الأديان. ومن هنا يصبح الفهم الذي يدعو إليه، يتضن الاعتراف بالتشابك الأزلي بينهما، ثم يقر بالمسار الفردي لكل منهما. فلا يظن واحد منهما أنه يمكن أن يضمن نفسه بديلا عن الآخر. ومن هنا وبدلا من التعدي، يقترح عامل الفهم للتأكيد على الطبيعة المستقلة لكل منهما، والتجاورية بالضرورة في الآن نفسه، ما يفتح أفقا للتعايش السلمي بينهما يحفظ حقوق الأفراد والجماعات على اختلافهم ويمنع دخول العنف طرفا ثالثا في هذه المعادلة. فبالتفهم ينفسح المجال لقبول الآخر والاعتراف بحقه في الاختلاف، وهو ما يعتبر حلا استباقيا أو وقاية من المآل الذي ينذر به وأد الظواهر الدينية الوليدة بالقوة.

الإظهار بديلا للاستتار: يرى يوسف زيدان أن الجماعة الدينية - وتفاديا للقهر السياسي - تلجأ إلى حيل تعد بمثابة الأستار الوهمية، لكن سرعان ما يحتدم الجدل الثلاثي ويحدث الصدام الحتمي. ومن هنا يصبح الإظهار، الذي يقترحه يقتضي الإقرار بالتعددية، والاعتراف بتنوع التجربة الإنسانية تنوعا غير محدود. من حيث أن فالخبرة الإنسانية لدى الفرد أو الجماعة، تطورية، تقابلية، ومتناقضة أحيانا أخرى. وهذا الاعتراف من شأنه التقليل من الحالة الصدامية كما يبعث على التحاور الدائم بينها، وتصبح المشاركة بديلا عن احتكار اليقين من طرف بعينه.

الضبط المتوازن: يتعلق الضبط بالعمليات التي تهدف إلى تنظيم حركة الفرد في المجتمع. يقول يوسف زيدان: "والتوازن العام في الضبط الاجتماعي للأفراد، يقتضي تجنب الغلو والتشدد في صياغة القواعد والقوانين واللوائح الضابطة، ويقتضي التعقل في تطبيقها" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 188). حيث يرى أن الاعتقاد بأن صرامة القوانين تجعل الحياة أكثر انضباطا، وهم عظيم انطلاقا من القاعدة الفيزيائية التي تقول بأن الضغط يولد الانفجار. وفي هذه الحالة لا يقتصر التطرف على الجماعات الدينية، حيث يتطرف العلمانيون أيضا في مذاهبهم، وينتهي الأمر إلى الصدام الحتمي. وهذا الأخير لا يقتصر على الداخل فقط حيث يمتد إلى الخارج. وهو الصدام المسمى مؤخرا - حسبه - بالإرهاب. وفي المقابل فإن الضبط المتوازن لكل من السياسي والديني يترك مساحة للحرية الإنسانية، تقود إلى عمليات ضبط ذاتية يرتضيها الأفراد دون ضغط من أي جهة سياسية أو دينية.

التعاون الدولي: يرى يوسف زيدان أن مواجهة عمليات العنف الديني وعمليات العنف باسم محاربة العنف الديني، تقتضي تعاونا دائما ومستمرا بين دول العالم. لأنها لم تعد مسائل داخلية، لما صارت لها تجليات عابرة للقارات. الأمر الذي تستحيل معه أي حلول جزئية أو إقليمية عديمة الجدوى، حيث يقتضي

حلها كثيرا من الفهم والتفهم والاستبصار والضبط المتوازن. على أن لا يكون هذا التعاون سبيلا آخر للهيمنة على العالم باسم محاربة الإرهاب. فقد أدى العنف الأمريكي إلى مزيد من العنف المضاد عابر للقارات لمواجهة الهيمنة الأمريكية، ولم يتحرر العراق لكن وقع في فوضى عارمة، ولم يتم القضاء على التطرف في أفغانستان، "فهناك - كما يقول - لا تزال الجبال.. والموروث.. والذكريات المؤلمة.. ونار الثأر المنذرة بالدخول إلى مرحلة أخرى من الانقلاب (الصيفي) بين الدين والسياسة" (**زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني**، 2009، **صفحة** 193)

ومن خلال كل ما سبق نستخلص التالي: فإذا كان السياسي والديني طرفان متلازمان ضمن هذا التاريخ المتواصل عبر فتراته التاريخية؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، فمن الخطأ المنهجي تغليب رؤية على الأخرى بدعوى حيازة الحقيقة وبالمقابل يكون الآخر مخطئا/ضالا.

ومن الخطأ أيضا ربط الدين بالعنف؛ لأن هذا الأخير ينبثق ضمن جدلية الدين/السياسة، فمتى ما غلبت جهة معينة، اتخذت من العنف وسيلة لها لقهر الآخر. وإذا ارتبط العنف في القديم/الزمن الوثني بالاقتصاد أو السياسة، فمع الديانات الرسالية/الإبراهيمية انضاف الدين طرفا آخر لأطراف النزاع. ومن هنا يصبح الحل الأمثل لهذا الإشكال، لا يكمن في العلمانية/فصل الدين عن الدولة، ولا في تكفير السياسيين، ولا في إقامة المؤتمرات حول حوار الأديان، ولكنه يكمن في خطوة أساسية هي إعادة بناء تصوراتنا عن ماهية كل من الدين والسياسة ومن هنا تتوضح الرؤية التي تحدد نوعية العلاقة التي يمكن أن تجمع بينهما، فتكون نتيجة ذلك، هي السعي إلى إيجاد سبل التعايش بينهما بوصفهما ضرورتان لا يمكن الاستغناء عن أي منهما.

8. خاتمة

إن يوسف زيدان ومن خلال إعادة بنائه لمجموعة من التصورات حول الديانات الثلاث اليهودية والسيحية والإسلام، مؤكدا عمق الصلات التي تجمعها بوصفها ديانة واحدة، إنما أراد تسليط الضوء على ذلك التاريخ الطويل الذي تشاركته شعوب المنطقة العربية عبر تلك المراحل الثلاث. هذا الماضي المشترك الذي حكمته الجغرافيا/ضفتي المتوسط ومنطقة الهلال الخصيب هو أيضا فكر مشترك خضع للآليات ذاتها مشكلة نسقا مضمرا، حكم التجليات الفرعية التي تكررت عبر هذا التاريخ، وإن اختلفت تفصيلاته السطحية. هذه الأخيرة شكلت محور دراسات كثيرة قديما وحديثا، شرقا وغربا، لم يفطن فيها الباحثون إلى تلك الامتدادات الواصلة بين هذا الفكر الكلي. الأمر الذي انجر عنه سوء فهم وتفسير لما يجري على الساحة الواقعية العربية والعالمية المعاصرة، وما نتج عنه من العجز عن تقديم الحلول الناجعة للمشاكل التي تعانيها شعوب المنطقة العربية خاصة في ظل التردي الحاصل في جميع الميادين. وانعكاسا لهذه المواجهة مع الجنون، يقترح يوسف زيدان إعادة العقل العربي إلى شكله الأولي، وإعادة بناء المفاهيم الأساسية التي تحكمه بعد طرح كل التصورات الخاطئة المحصلة عن طريق التقليد/تخليصه من الفيروسات التي ألحقتها به البرامج التعليمية. وبتوجيه العقل العربي الوجهة الصحيحة بوعيه بتاريخه الممتد، سوف يموضع نفسه الموضعة الصحيحة ضمن هذا التاريخ، ويستشف منه العبر ويحيي الأمل في بناء مستقبل أفضل. كما يلفت نظر شعوب الضفة الأخرى إلى لا جدوى الاتهامات التي تكال إلى الإسلام والمسلمين، لعمق الروابط التاريخية التي تجمعه بتراثها. على أن هذا الجهد المفرد لن يكون بالفاعلية ذاتها إذا ما أصبح جماعيا، ومن هنا يصبح دعوة مفتوحة لجميع الأطراف من أجل تصحيح تصوراتها والعمل على تحقيق هذا المستقبل، بوصفه مستقبلا مشتركا يشارك فيه الجميع. كما هي دعوة أيضا إلى إعادة الاهتمام بتحرير وتدقيق دلالة المفردات وتتبع التغيرات التي تطرأ عليها، فبانضباط المفردات تنضبط المفاهيم وبانضباط المفاهيم تتضح الرؤى والتصورات، وينعكس أثرها في الواقع الفعلي.

تضارب المصالح

يعلن المؤلفون أنه ليس لديهم تضارب في المصالح.

- المصادر والمراجع

ج.ويلتر. (2007). الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية ترجمة جمال سالم. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

جميل صليبا. (1989). تاريخ الفلسفة العربية. بيروت: الشركة العالمية للكتاب .

جينيفر مايك هيكت. (2014). تاريخ الشك ترجمة عماد شيحة . القاهرة: المركز القومي للترجمة.

رونيه ديكارت. (1968). مقال عن المنهج ترجمة محمود محمد الخضيري. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

ريتشارد تارناس. (2010). آلام العقل الغربي ترجمة فاضل جتكر. المملكة العربية السعودية: العبيكان وكلمة.

يوسابيوس القيصري. (1960). تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقس داود. القاهرة: مكتبة المحبة.

يوسف زيدان. (2008). عزازيل. القاهرة: دار الشروق.

يوسف زيدان. (2009). اللاهوت العربي وأصول العنف الديني. القاهرة: دار الشروق.

يوسف زيدان. (2011). كلمات..التقاط الألماس من كلام الناس. القاهرة: دار نهضة مصر.

يوسف زيدان. (2013). دوامات التدين. القاهرة : دار الشروق.

يوسف زيدان. (2013). فقه الثورة. القاهرة: دار الشروق.

- كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

عبلة ساتة وآخرون، (2022)، تفكيك بنية العقل الديني التفكير في فضاء تاريخي عربي من منظور يوسف زيدان، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 14، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات:180-194